

الفصل الثاني عشر

الصراع على البلطيق

١٦٤٨ - ١٧٢١

١ - السويد المغامرة : ١٦٤٨ - ١٧٠٠

ان التاريخ شظية من البيولوجيا - انه اللحظة البشرية فى موكب الأنواع . وهو أيضا وليد الجغرافيا - لأنه فعل الأرض والبحر والهواء ، وأشكالها ونتائجها ، وتأثيرها فى رغبة الانسان ومصيره . فلنتأمل هنا أيضا تلك المواجهة بين الدول المحيطة بالبلطيق فى القرن السابع عشر . فالسويد فى شماله ، واستونيا وليفونيا ولتوانيا فى شرقه ، ومن خلفها روسيا الباردة الجائعة ، وفى جنوبه بروسيا الشرقية وبولنده وبروسيا الغربية وألمانيا ، وفى غربه الدنمرك بموقعها الاستراتيجى على منافذ البلطيق الضيقة الى بحر الشمال والاطلنطى . لقد كان هذا سجنا جغرافيا سيصطرع نزلاؤه على السيطرة على تلك المياه والمضايق ، والشواطىء والثغور ، ومسالك التجارة ودروب الهرب برا أو بحرا . هنا خلقت الجغرافيا التاريخ .

أما الدنمرك فقد لعبت الآن دورا صغيرا فى مسرحية البلطيق . ذلك أن نبلاءها الذين احتكروا الحرية لأنفسهم غلوا أيدي ملوكها وأرجلهم . وكانت قد نزلت عن سيطرتها على مضائق الاسكاجراك والكاتيجات (١٦٤٥) وبقيت النرويج خاضعة لها ، ولكنها فى ١٦٦٠ فقدت أقاليم السويد الجنوبية . وشعر فردريك الثالث (١٦٤٨ - ٧٠) بحاجته الى سلطة ممرضة تتصدى للتحديات الخارجية ، فأرغم النبلاء على أن ينزلوا له عن السلطة المطلقة والوراثية ، مستعينا على ذلك برجال الدين والطبقات الوسطى . وقد وجد ابنه كرستيان الخامس (١٦٧٠ - ٩٩) معينا له فى بيدر شوماخر ، كونت جريفنفلد ، الذى ظفر بثناء لويس الرابع عشر عليه وزيرا من أكفأ الوزراء فى عصر الدبلوماسية الذهبى ذاك . أصلح مالية الدولة ، ودفع التجارة والصناعة

قدما ، وأعاد تنظيم الجيش والبحرية . واستن الكونت مياسة السلم ، ولكن الملك الجديد كان تواقا لاستعادة القوة والأقاليم التي كانت الدنمرك تملكها فيما مضى . ومن ثم ففي ١٦٧٥ جدّد الحرب القديمة مع السويد ، ولكنه هزم ، وثبتت من جديد سيادة السويد على اسكندناوة .

وقد تعاقب على عرش السويد فى تلك الحقبة طائفة ممتازة من الملوك الأشداء ، وظلوا نصف قرن أعجوبة زمانهم لا ينافسهم فى ذلك منافس غير لويس الرابع عشر . ولو أتيح لهم سند أكبر من الموارد لبلغوا ببلدهم من القوة والمنعة مبلغ فرنسا ، ولاستطاع الشعب السويدي - بوحى من منجزات الجوستافين ، والكارلين الثلاثة ، ووزرائهم العظام - أن يموّل ازدهارا ثقافيا يتناسب مع انتصاراتهم وتطلعاتهم . غير أن الحروب التي عززت قوتهم استنزفت ثروتهم ، فخرجت السويد من ذلك العهد مستنزفة القوى وان تكلفت بأمجاد البطولة . وانه لما يثير الدهشة أن تحقق أمة من الأمم هذا القدر الكبير من المنجزات فى الخارج على ما بها من ضعف شديد . فسكانها لم يجاوزوا مليوناً ونصفاً ، ينقسمون طبقات لم تتعلم الى ذلك الحين أن يعيش بعضها مع البعض فى سلام . وكان النبلاء يتسلطون على الملك ، ويقررون لأنفسهم شراء أراضي من أملاك التاج بشروط ميسرة ، والصناعة مقيدة محددة بحاجات الحرب تحديدا أعجزها عن تغذية التجارة التي أطلقت الحرب عقالها ، وكانت الأملاك الخارجية عبئا لا تبرره غير العزة القومية . ان حنكة الوزراء المخلصين وحدها هي التي دفعت عن البلاد خطر الافلاس الذي بدا أنه ثمن المجد .

كان شارل العاشر جوستافس ابن عم كرستينا الرهيبة ، ورفيق لعبها ، وعاشقها ، وخلفها بعد أن نزلت له عن العرش فى ١٦٥٤ . وقد درأ خطر الافلاس بأكراه النبلاء على رد بعض الضياع الملكية التي سطوا عليها . واستطاعت الدولة بفضل هذا « الاختزال » لأملاك الاقطاعيين أن تسترد ثلاثة آلاف مسكن بأراضيها وتستعيد قدرتها على الوفاء بديونها . ورغبة فى استكمال النقص فى العملة الفضية والذهبية ، عهد شارل الى يوهان بالمسترو بإنشاء مصرف قومي واصدار نقود ورقية

(١٦٥٦) - وهى أول ما صدر منها فى أوربا . وقد حفز ازدياد تداول العملة الورقية الاقتصاد حيناً ، ولكن المصرف أصدر منها فوق ما يستطيع الوفاء به نقداً عند الطلب ، فأوقفت التجربة . ونقل الملك المقدم أثناء ذلك صناعة الحديد والصلب التى اختصت بها ريجا الى السويد ، فأرسي بذلك أسس قاعدة صناعية أقوى تستند اليها سياسته العسكرية .

أما هدفه الذى جاهر به فكان توسيع رقعة ملكه . فالامارات التى كسبها جوستافس أهولفس على أرض القارة تهدد بالثورة ، والحكومة البولندية تأبى أن تعترف بشارل العاشر ملكاً على السويد ، ولكن بولنده أضعفها تمرد القوزاق ، وقد خفت روسيا لنجدة القوزاق ، وكان الأمل ولا ريب يراودها فى شق طريق لها الى البلطيق . ثم ان للسويد جيشاً حسن التدريب خافت أن تسرحه ، وخير سبيل الى اعاشته أن يخوض حرباً ظافرة . ورأى شارل فى هذه الظروف كلها ما يزكى الهجوم على بولنده . وعارض الفلاحون ورجال الدين ، فاسترضاهم بالزعم بأن مشروعه ليس الا حرباً مقدسة لحماية حركة الاصلاح البروتستنتى وتوسيع نطاقها (١٦٥٥) (١) .

ولكن تبين أن بولنده بلد سهل غزوه ، ويصعب اخضاعه . كانت مقاومتها فى الغرب ضعيفة لما حاق بها فى الشرق من خلل وما عانته من غارات العدو . ودخل شارل وارسو ، وهذا النبلاء البولنديين بوعدده أن يبقى على امتيازاتهم الموروثة ، وتلقى ولاء البروتستنت البولنديين ، وعرض اللتوانيون أن يعترفوا بسيادته . ولما حاول فردريك وليم ، « ناخب براندنبورج الأكبر » الافادة من انهيار بولنده بالاستيلاء على بروسيا الغربية (وكانت يومها اقطاعاً بولندياً) ، سير شارل جيشه غرباً بسرعة نابليونية وحاصر الناخب فى عاصمته ، وأرغمه على توقيع معاهدة كونيغزبيرج (يناير ١٦٥٦) . وأعلن الناخب ولاءه لشارل فيما يتصل بروسيا الشرقية باعتبارها اقطاعاً سويدية ، ووافق على أن يؤدى للسويد نصف رسوم تلك الولاية وضرائبها ، ووعد بأن يمد الجيش السويدي بألف وخمسمائة مقاتل .

غير أن الخصومة الدينية التى اثارها شارل هزمته . ذلك أن البابا اسكندر السابع والامبراطور فرديناند الثالث سخرا كل ما يملكان

من نفوذ ليؤلغا حلفا ضد السويد ، لا بل ان الدنمركيين والهولنديين البروتستنت انضموا الى الحلفاء فى تصميمهم على كبح جماح الفاتح الشاب مخافة أن يعدو بعد ذلك على ممتلكاتهم أو تجارتهم . فخرج قافلا الى بولنדה ، وهزم قوة بولندية جديدة ، واحتل وارسو من جديد (يوليو ١٦٥٦) . غير أن بولنده امتشقت الآن الحسام لقتاله بعد أن ثارت حماسها الدينية ، وألقى شارل نفسه - وهو بلا صديق رغم انتصاره - وقد أهدق به الأعداء من كل حذب . وهجره ناخب براندنبورج وتعهد بتقديم العون لبولنדה . أما شارل - الذى كان خبيراً بكسب المعارك فقط لا بدعم فتوحه بصلح عملى - فقد اكتسح البلاد غرباً فى هجوم على الدنموك ، وعبر الكاتيجات فوق ثلاثة عشر ميلاً من الجليد (يناير ١٦٥٧) ، وهزم الدنمركيين ، وأكره فردريك الثالث على توقيع صلح روسكيلدى (٢٧ فبراير) . وانسحبت الدنمرك كلية من شبه الجزيرة السويدية ، ووافقت على أن تغلق مضيق الساوند فى وجه أعداء السويد . فلما تباطأ الدنمركيون فى تنفيذ هذه الشروط استأنف شارل الحرب ، وحاصر كوبنهاجن . وعقد العزم الآن على خلع فردريك الثالث ، وتوحيد الدنمرك والسويد والنرويج من جديد تحت تاج واحد .

ولكن القوة البحرية هزمته . ذلك أن انجلترا والأقاليم المتحدة ، وهما أعظم أمم العصر البحرية آنذاك ، اتفقتا الآن - رغم ما بينهما عادة من عداة - على ألا تقبض أى دولة من الدول على مفتاح البلطيق بالهيمنة على الساوند بين الدنمرك والسويد . وفى أكتوبر اقتحمت قوة هولندية الساوند ، ورفعت الحصار عن كوبنهاجن ، وسأقت أمامها الأسطول السويدي الصغير الى ثغوره فى أرض الوطن . وأقسم شارل أن يقاتل الى النهاية . ولكن الشدائد التى عاناها فى حملاته كانت قد فعلت فيه فعلها ، فبينما كان يخطب الديت السويدي فى جوتيبورج أخذته الحمى . وما لبث أن قضى نحبه فى ربيع حياته (١٣ فبراير ١٦٦٠) .

وكان ابنه شارل الحادى عشر (١٦٠٠ - ٩٧) لا يزال فى الخامسة ، فاضطلع بالحكم مجلس وصاية أنهى الحرب بصلح أوليفا

ومعاهدة كوبنهاجن (مايو ، يونيو ١٦٦٠) . ونزلت الملكية البولندية عن دعواها فى تاج السويد ، وثبتت تبعية ليفونيا للسويد ، ونالت براندنبورج الحق الكامل فى بروسيا الشرقية ، واحتفظت السويد بمقاطعاتها الجنوبية (سكاني) وأقاليمها على أرض القارة (بريمن ، وفيردن ، وبومرانيا) ، ولكنها انضمت الى الدنمرك فى ضمان حق السفن الأجنبية فى دخول البلطيق . وبعد عام وقعت السويد وبولنده فى كارديس صلحا فاترا مع قيصر الروس . واستمر الصراع على البلطيق خمسة عشر عاما بوسائل أخرى غير الحرب .

كانت هذه المعاهدات نصرا لا يستهان به للسويد ، ولكن البلاد أشرفت مرة أخرى على الأفلاس . وكافح عضوان من مجلس الوصاية هما جوستاف بوندى وبير براهى للحد من النفقات الحكومية ، ولكن المستشار ماجنس دى لا جاردى أضف الى الديون القديمة ديونا جديدة ، وأتاح للنبل والأصدقاء ولنفسه جنى المنافع على حساب الخزانة ، وفى سبيل تلقى المعونة المالية ربط السويد بحلف مع فرنسا (١٦٧٢) قبل أن ينقض لويس الرابع عشر على الاقاليم المتحدة ، حليفة السويد ، بأيام معدودات فقط . وما لبثت السويد أن وجدت نفسها تخوض حربا ضد الدنمرك ، وبراندنبورج ، وهولنده . وهزمت على يد الناخب الأكبر فى فيربيلن (١٨ يونيو ١٦٧٥) ، واجتاح أعداؤها أقاليمها القارية ، وغزا جيش دنمركى « سكاني » من جديد ونكبت البحرية السويدية بكارثة تجاه أولاند « ١ يونيو ١٦٧٦ » .

وأنقذ السويد ملكها الشاب شارل الحادى عشر ، الذى اضطلع الآن بزمام الأمر ، وذلك بسلسلة من الحملات ألهمت فيها بسالته الشخصية جنوده ، فدحروا الدنمركيين فى لوند ولاندسكرون . وبفضل هذين الانتصارين وتأييد لويس الرابع عشر استردت السويد كل ما فقدته . وتعاون بطل جديد من أبطال الدبلوماسية السويدية ، هو الكونت يوهان جيلنشتيرنا ، مع الكونت جريفنفلد - لا فى الترتيب لصلح بين السويد والدنمرك فحسب ، بل فى إبرام حلف عسكرى وتجارى بينهما . واتفقت الدولتان على عملة مشتركة ، وكانت الوحدة الاسكندنافية كلها قاب قوسين أو أدنى حين قطع هذا التطور موت

جيلنشتييرنا وهو فى الخامسة والأربعين (١٦٨٠) . وحافظت الامتان على السلام عشرين عاما .

وكان جيلنشتييرنا قد علم الملك الشاب أن السويد لن تستطيع الأبقاء على مكانتها بين الدول العظيمة اذا مضى نبلاؤها فى التهام أراضي التاج ، وهو أمر يهوى بالملكية الى ذل الفقر وبالدولة الى درك العجز . وفى ١٦٨٢ اتخذ شارل الحادى عشر خطوة حاسمة . فاستأنف بتأييد من رجال الدين والفلاحين وأهل المدن ، فى تدقيق وشمول يحفزهما السخط « اختزال » أراضي النبلاء ، أى استرداد ما فقدته الملكية من ضياعها . ثم حقق فى فساد الموظفين وعاقبه ، وبلغ بايرادات الدولة النقطة التى أتاحت للسويد القدرة من جديد على الاحتفاظ بممتلكاتها والاضطلاع بتبعاتها . ولم يكن شارل الحادى عشر بالملك المحبب جدا الى شعبه ، ولكنه كان ملكا عظيما . فلقد أثر انتصارات السلام الأقل ضجيجا على انتصارات الحرب ، وذلك رغم ما خلف فى الحرب من سجل يحسده عليه الكثيرون . وقد وطد حكم الملكية المطلق ، ولكن هذا النظام كان يومها البديل لاقطاعية رجعية فوضوية .

وفى هدوء هذه الهدنة الصافية ازدهرت علوم السويد وآدابها وفنونها . وبلغت العمارة السويدية أوجها فى القصر الملكى الفخم الضخم باستوكهولم ، الذى صممه (١٦٩٣ - ٩٧) نيقوديموس تيسين . وكان لارس يوهانسون للسويد بمثابة ليوباردى (الايطالى) ومارلو (الانجليزى) مجتمعين ، فهو يتغنى غناء شجيا بكراهية الانسان ، ويلقى حتفه بطعنات السلاح فى شجاريحان قضي عليه وهو بعد فى السادسة والثلاثين . وقد ألف جونو دالشتيرنا ملحمة شعرية ببحر دانتي سماها Kunga Skald (١٦٩٧) اشادة بمآثر شارل الحادى عشر . ومات الملك فى تلك السنة ، بعد أن أنقذ وعمر بلدا كاد يدمره من بعده ابنه الأشهر منه .

وكان هذا الابن ، شارل الثانى عشر ، قد بلغ الخامسة عشرة . ولما كانت خريطة أوربا يعاد رسمها آنئذ بالدم والحديد ، فقد درّب أولا وقبل كل شيء على فنون القتال . فهياته العابه كلها للأعمال العسكرية ، وتعلم الرياضيات فرعا من العلوم الحربية ، وقرأ من اللاتينية ما يكفيه

لان يستوحى من سيرة الامكندر التى كتبها كنتوس كورتيوس طموح
التفوق فى السلاح ان لم يكن الطموح لغزو العالم . واذ كان فارغ القامة ،
وسيما ، قويا ، لا يثقل بدنه درهم زائد من لحم وشحم ، فقد استمتع
بحياة الجندى ، وتجلد لما فيها من حرمان ، وهزا بالخطر والموت ،
وتطلب هذه الصلابة عينها فى جنده . ولم يابه كثيرا بالنساء ، فلم
يتزوج قط وان خطبت وده الكثيرات . وكان يصيد الدببة وسلاحه شوكة
خشبية ثقيلة لا أكثر ، ويركب خيله بسرعة طائشة ، ويسبح فى مياه
تغطى الثلوج نصفها ، ويلتذ المعارك الزائفة التى كاد هو وأصدقائه
يلقون حتفهم فيها غير مرة . وقد رافقت بسالته العنيدة وحيويته البدنية
بعض فضائل الخلق والعقل : صراحة تزدرى الاعيب الدبلوماسية ،
واحساس بالشرف تشوبه لحظات شاذة من القسوة الوحشية ، وعقل
يلتقط لب الأمور لتوّه ، ولا يطيق المداخل المتسوية فى التفكير او
التدبير ، وكبرياء صموت. لم يغب عنها قط محتده الملكى ولم تعترف
قط بالهزيمة . وآية ذلك أنه فى حفلة تتويجه توج نفسه بيده على طريقة
نابليون ، ولم يقطع على نفسه يمينا تحدد من سلطته ، فلما تشكك أحد
رجال الدين فى صواب خلع السلطة المطلقة على فتى لم يتجاوز
الخامسة عشرة ، حكم عليه شارل أولا بالاعدام ، ثم خفف الحكم الى
السجن المؤبد .

كانت السويد يوم ارتقى عرشها دولة قارية كبرى ، تحكم فنلنده ،
واينجريا ، واستونيا ، وليفونيا ، وبومرانيا ، وبريمن ، وكانت تهيمن
على البلطيق وتقوم سدا حائلا بين روسيا وبين ذلك البحر . وراتروسيا ،
وبولنده ، وبراندنبورج ، والدنمرك ، فى حداثة سن ملك السويد
فرصة لمد حدودها دعما لتجارتها ومواردها . وكان « العامل الهدام »
فى هذا الحل الجغرافى فارسا ليفونيا يدعى يوهان فون باتكول ، انخرط
فى سلك الجيش السويدي بوصفه من رعايا السويد ، وارتقى الى رتبة
النقيب . وفى ١٦٨٩ و ١٦٩٢ احتج بشدة على « اختزال » شارل الحادى
عشر لضياح النبلاء فى ليفونيا ، فاتهم بالخيانة ، وفر الى بولنده ، ثم
التمس من شارل الثانى عشر أن يعفو عنه فرفض ، وفى ١٦٩٨ اقترح
على اوغسطس الثانى ملك بولنده وسكسونيا تأليف حلف ضد السويد من
بولنده ، وسكسونيا ، وبراندنبورج ، والدنمرك ، وروسيا . ورأى

أوغسطس أن الخطة جاءت في أوانها ، فاتخذ الخطوة الأولى بالدخول في حلف مع ملك الدنمرك فردريك الرابع (٢٥ سبتمبر ١٦٩٩) . وذهب باتكول الى موسكو . وفي نوفمبر وقع بطرس الأكبر مع مبعوثي سكسونيا والدنمرك اتفاقا لتقطيع أوصال السويد .

٢ - بولنده وسويسكى : ١٦٤٨ - ٩٩

في مستهل هذه الحقبة أثر حدثان تأثيرا عميقا في تاريخ بولنده ففي ١٦٥٢ هزم عضو واحد من أعضاء البرلمان البولندي Sejm للمرة الأولى قانونا بممارسته حق « الفيتو المطلق » ، الذي كان يسمح لأي نائب في ذلك البرلمان بإبطال قرار أية أغلبية . ذلك أن النظام في الماضي كان يشترط موافقة جميع الأقاليم قبل اقرار أى قانون ، وكانت أقلية ضئيلة أحيانا تجعل التشريع مستحيلا ، ولكن فردا من الأفراد لم يؤكد الى ذلك الحين الحق في نقض اقتراح يقبله الباقيون كلهم . وقد استطاع « الفيتو المطلق » لنائب واحد أن « ينسف » أو ينهى ثمانى وأربعين دورة من الدورات الخمس والخمسين التي عقدها البرلمان بعد ١٦٥٢ . وقد افترضت الخطة أنه ما من أغلبية تستطيع بحق أن تطغى على أقلية مهما صغرت . ولم يكن مبعثها النظرية الشعبية بل الكبرياء الاقطاعية ، اذ اعتبر كل مالك نفسه سيدا أعلى في أرضه . وأسفر هذا عن أكبر قدر من الاستقلال المحلى والعقم الجماعى . ولما كان الملوك خاضعين للبرلمان ، والبرلمان خاضعا للفيتو المطلق ، فقد كانت السياسة القومية المتسقة ضربا من المحال عادة . وبعد تسع سنوات من الفيتو الأول تنبأ الملك جون كازيمير للبرلمان بنبؤة لافطة للنظر ، قال :

« أتمنى على الله أن يتبين أننى نبي كذاب ، ولكنى أقول لكم انكم ان لم تجدوا علاجا لهذا الشر (أى الفيتو المطلق) فستغدو الدولة فريسة للدول الأجنبية . سوف يحاول الموسكوفيون ان يقطعوا بالاتيناتنا الروسية ربما الى الفستولا . وسوف يحاول البيت المالك البروسي الاستيلاء على بولنده الكبرى . وسوف تلقى النمسا بثقلها على كراكو . وسوف تؤثر كل من هذه الدول اقتسام بولنده دون الاستيلاء عليها كلها ولها هذه الحزبات التي تتمتع بها اليوم » (٢) .

وقد تحققت هذه النبوءة بحذافيرها تقريبا .

وكانت ثورة القوزاق فى أوكرانيا (١٦٤٨) حدثا لا يفوقه فى أهميته التاريخية سوى هذا الفيتو . ذلك أن دمج لتوانيا مع بولنده فى « اتحاد لوبلين » (١٥٦٩) أخضع اقليم أوكرانيا ، الذى يجرى فيه نهر الدنيبر ، لحكم غلب عليه العنصر البولندى ، وكان أكثر سكان الاقليم من قوزاق زابوروج الذين ألفوا الاستقلال وتمرسوا بالحرب . وحاول النبلاء البولنديون الذين ابتاعوا الأرض فى أوكرانيا أن يرسوا فيها أسس الأحوال الاقطاعية ، وثبط الكاثوليك البولنديون ممارسة تلك الحرية التى كفلها اتحاد لوبلين للعبادة الارثوذكسية . وانبعثت ثورة من ثورات القوزاق من هذا المركب من أسباب السخط والتذمر ، وتزعما حينما زعيم حربى (هتمان) غنى يدعى بوجدان شميلنيكى ، وناصرها تتار القرم المسلمون . وفى ٢٦ مايو ١٦٤٨ دحر التتار والقوزاق الجيش البولندى الرئيسى فى كورسون ، وسرت الحماسة للثورة بين الأغنياء والفقراء على السواء .

وقد خلفت وفاة لاديسلاس الرابع فى ٢٠ مايو عرش بولنده فى هذه الأثناء ماثرا لنزاع بين النبلاء استمر حتى ٢٠ نوفمبر ، حين اختارت هيئة الديت الانتخابية جون الثانى كازيمير . أما شميلنيكى فقد خشي ألا تستطيع الثورة الصمود للجيوش البولندية المعززة الا بقبول المعونة والسيادة الأجنبية ، فاختر الاستنجد بروسيا الارثوذكسية . وعرض أوكرانيا على القيصر الكسيس ، ورحبت الحكومة الروسية بالعرض وهى عليمة بأن معناه الحرب مع بولنده ، وبمقتضى « قانون بيرياسلاف » ١٨ يناير ١٦٥٤ ، انضوت أوكرانيا تحت الحكم الروسى . وكفل للاقليم الاستقلال الذاتى تحت حكم زعيم حربى ينتخبه القوزاق ويصدق على انتخابه القيصر .

وفى الحرب التى تلت ذلك بين بولنده وروسيا ، حول تتار القرم الذين آثروا أوكرانيا بولندية على أوكرانيا روسية - حولوا معونتهم من القوزاق الى البولنديين . وفى ٨ أغسطس ١٦٥٥ استولى الروس على فلنسو ، وذبحوا آلافا من الأهالى ، وأحرقوا المدينة وسووها بالتراب . وبينما كان البولنديون يدافعون عن أنفسهم على جبهتهم الشرقية ، قاد شارل العاشر

جيشا سويديا الى غربي بولنده واستولى على وارسو (٨ سبتمبر) .
وانهارت المقاومة البولندية . وأعلن النبلاء البولنديون ، بل حتى
الجيش البولندي ، الخضوع للفتح وأقسموا يمين الولاء له (٣) . وأرسل
له كرومويل تهانته لأنه قبض على أحد قرون البابا (٤) ، وأكد شارل
لـ « حامى الجمهورية » (كرومويل) أنه عما قليل لن يبقى فى بولنده
بابوى واحد (٥) ، ومع ذلك وعد بالتسامح الدينى فى بولنده .

على أن خططه أحبطها جيشه الظافر . ذلك أنه الجيش أفلتت
زمامه ، فراح ينهب المدن ويذبح السكان ويسلب الكنائس والأديار . وقاوم
الحصار دير ياسنا جورا ، القريب من تشستوتشوا ، مقاومة باسلة ، وأثار
نجاحه الذى عد من المعجزات حماسة الجماهير الدينية ، وأهاب الكهنة
الكاثوليك بالأمة أن تطرد الغزاة الكفار ، وبادر الفلاحون الى امتشاق
الحسام ، ففرت الحامية التى تركها شارل فى وارسو أمام الحشد الزاحف
وأعيد كازيمير الى عاصمته (١٦ يونيو ١٦٥٦) وانقلب التتار على
روسيا ، ووقعت روسيا هدنة مع بولنده مؤثرة جيرتها على جيرة السويد
(١٦٥٦) . وأفضى موت شارل العاشر فجأة الى صلح أوليفا (٣ مايو
١٦٦٠) الذى أنهى الحرب بين بولنده والسويد . وفى ١٦٥٩ استؤنف
الصراع مع روسيا . وبعد ثمانية أعوام من الفوضى والحملات وذبذبات
الولاء القوزاقى ، نالت روسيا بمقتضى صلح أندروسوفو (٢٠ ينساير
١٦٦٧) سمولينسك ، وكيف ، وأوكرانيا شرقى الدنيير . وظلت تجزئة
أوكرانيا على هذا النحو سارية حتى التقسيم الأول لبولنده (١٧٧٢) .

ثم اعتزل جون كازيمير عرش بولنده (١٦٦٨) بعد أن أرهقته
الحرب وأضناه الفيتو مطلق ، واعتكف فى نيفير بفرنسا ، وعاش حياة
هادئة بين الدرس والصلاة الى أن مات (١٦٧٢) . وخاض خلفه ميخائيل
فسنيوفيكى حربا مدمرة مع العثمانيين ، وبمقتضى صلح بوكراكر
(١٦٧٢) اعترفت بولنده بالسيادة العثمانية على أوكرانيا الغربية ،
وتعهدت بأداء جزية سنوية للسلطين تبلغ ٢٢٠.٠٠٠ دوكاتية . وفى تلك
الحرب اكتشفت بولنده عبقرية جان سويسكى الحربية ، فلما مات
فسنيوفيكى (١٦٧٣) ، انتخب الديت أعظم ملوك بولنده قاطبة
(١٦٧٤) بعد أن ضيّع وقتا ثميناً على عادته .

أما جان هذا - الذى يسمى الآن يوحنا الثالث - فكان يبلغ الرابعة والأربعين اذ ذاك . وقد حالفه الحظ فى مولده ، لأن أباه كان الحاكم العسكرى لكراكو ، أما أمه فكانت حفيدة القائد البولندى ستانسلاس زولكيفسكى الذى استولى على موسكو فى ١٦١٠ ، وكان حب الحرب ييمرى فى دم جان . وبفضل تعليمه فى جامعة كراكو وأسفاره فى ألمانيا والأراضي المنخفضة وانجلترا وفرنسا ، حيث قضى بباريس قرابة عام ، أصبح رجلا مثقفا فضلا عن بسالته ومهارته الحربيتين . وفى ١٦٤٨ مات أبوه ، عقب اختياره ممثلا لبولنده فى معاهدة وستفاليا . وسارع جان بالعودة الى أرض الوطن ، وانضم الى الجيش البولندى فى قتال الثوار القوزاق . ولما غزا السويديون بولنده ، وفر جان كازيمير ، كان سوبيسكى واحدا من الموظفين البولنديين الذين ارتضوا شارل العاشر ملكا على بولنده ، وظل يخدم عاما فى الجيش السويدي . ولكن حين ثار البولنديون على الغزاة عاد سوبيسكى الى ولائه القومى ، وأبلى فى الدفاع عن وطنه بلاء رفيع الى منصب القائد العام للجيش البولندى فى ١٦٦٥ . وفى تلك السنة تزوج المرأة الممتازة التى أصبحت نصف حياته والمشكل لسيرته .

هذه المرأة ، واسمها ماريا كازيميرا ، التى كان يجرى فى عروقتها الدم الفرنسى الملكى ، ولدت فى نيفير عام ١٦٤١ ، وربيت فى فرنسا وبولنده . وفى وارسو يوم كانت فى الثالثة عشرة ألهب حننها ومرحها عاطفة سوبيسكى وهو فى الخامسة والعشرين . ولكن سعود الحرب ونحوسها أفصته عنها ، فلما عاد وجدها زوجة لنبيل فاسق يدعى جان زامويسكى . واذ كانت ماريا مهملة من زوجها ، فقد قبلت سوبيسكى وصيفا مرافقا . ويبدو أنها حافظت على عهودها الزوجية ، ولكنها وعدت بالزواج من سوبيسكى حالما يفسخ زواجها من زامويسكى . على أن الزوج كفاها مئونة هذا الشرط بموته . وما لبث العاشقان أن تزوجا ، وأصبح غرامهما الطويل أسطورة فى التاريخ البولندى . وكان الكثير من النساء البولنديات ينافسن النساء الفرنسيات فى الجمع بين الجمال الكلاسيكى ، والشجاعة والذكاء القريبين من شجاعة الرجال وذكائهم ، والولع بصنع الملوك أو ارشادهم . وقد بدأت ماريا من يوم زواجها تخطط لى تبوىء سوبيسكى عرش بولنده .

وكان حبها أحيانا حبا لا يقيم وزنا لصوت الضمير كما قد يكون.
الحب . ففي ١٦٦٩ يبدو أن سوبيسكى قبل المال الفرنسي ليؤيد كردينالا
فرنسيا ضد فسنيوفيكى . وبعد انتخاب ميخائيل انضم جان الى غيره من.
النبلاء فى مؤامرات تستهدف خلع الملك لأنه جبان لا يصلح للدفاع عن
بولنده ضد العثمانيين ولا رغبة له فى هذا الدفاع . وقاد بنفسه رجاله الى
انتصارات أربعة خلال عشرة أيام . وفى ١١ نوفمبر ١٦٧٣ ، وهو اليوم
الذى مات فيه الملك ، دحر سوبيسكى العثمانيين فى خوتين ببسارابيا .
وجعله هذا النصر المرشح المنطقى لعرش لا قبل الآن بدفع الأعداء
المحذقين به من كل جانب الا لأصلب القتال وأشدّه تصميما . ولكى يدعم
المنطق حضر الى هيئة الديت الناخبة على رأس ستة آلاف مقاتل . ولعب
المال الفرنسي دورا فى انتخابه ، ولكن هذا كان يتفق وسنة العصر تمام
الاتفاق .

ولقد كان ملكا بجسمه وروحه كما كان باسمه . وصفه الأجانب بأنه
« من أكثر الرجال وسامة وأكملهم بنية » فى أوربا ، « له طلعة نبيلة
شماء ، وعينان تشعان نورا ونارا (٦) » قوى البدن ، مثابر على الأنجاب ،
متطلع العقل متيقظه . وقد حفز حبه الطبيعى للتملك اسراف حبيبته
ماريزنيكا ، ولكنه كثيرا ما عوض عن بخل البرلمان الشحيح بدفع رواتب
جنده من جيبه ، وبيع أملاكه ليشتري لهم البنادق (٧) . وقد استحق كل
ما أخذ ، لأنه أنقذ بولنده وأوربا جميعا .

ذلك أن سياسته الخارجية كانت بسيطة فى هدفها ، وهو ردّ
العثمانيين الى آسيا ، أو على الأقل صد هجماتهم على معقل العالم
المسيحى الغربى بفيينا . وقد عاكس جهده هذا تحالف حليفته فرنسا مع
السلطان العثمانى ، ومحاولات الامبراطور أن يزج به فى الحروب
التركية ، وكان ليوبولد الأول يأمل اذا وفق فى محاولاته هذه أن تطلق
يد النمسا فى تملك الأراضي الدانيوبية أو المجرية التى كانت كل من النمسا
وبولنده تدعى الحق فيها لنفسها . وبينما كان سوبيسكى يتحسس طريقه
غاضبا وسط هذه المتاهة ، تآقت نفسه لحرية تخطيط السياسة واصدار
الأوامر دون أن يكون خاضعا فى كل خطوة للبرلمان والفييتو المطلق .
وحسد لويس الرابع عشر والامبراطور على سلطتهما فى اتخاذ القرارات
بصورة قاطعة ثم اصدار الأوامر دون ابطاء .

وعقب انتخابه اضطلع باسترداد أوكرانيا الغربية من العثمانيين ،
الذين تقدموا الآن شمالا حتى بلغوا لفوف . وهناك ، وبقوة لا تزيد على
خمسة آلاف فارس ، هزم عشرين ألف تركي (٢٤ أغسطس ١٦٧٥) .
وبمقتضى معاهدة زورافنو (١٧ أكتوبر ١٦٧٦) أكره العثمانيين على
النزول عن حقهم المزعوم فى الجزية ، والاعتراف بسيادة بولنـدة على
أوكرانيا الغربية . ثم شعر بأن الفرصة مواتية لطرد القوة العثمانية من
أوروبا . فدعا الامبراطور للانضمام اليه فى حرب ضروس يخوضانها مع
الترك ، ولكن ليوبولد اعترض بأنه لا يملك تأكيدا بالأى يهاجمه لويس
الرابع عشر فى الغرب ان أرسل جيوشه الى الشرق ، ورجا سوبيسكى
فرنسا أن تعطى النمسا هذا التأكيد ، ولكن لويس الرابع عشر أبى (٨) .
وتحول سوبيسكى أكثر فأكثر الى التحالف مع النمسا . فلما حاول العملاء
الفرنسيون رشوة البرلمان ضده فضح مؤامراتهم ونشر رسائلهم السرية .
وفى رد الفعل التالى ضد فرنسا وقع البرلمان (١ أبريل ١٦٨٣) خلفا
مع الامبراطورية ، واتفق على أن تحشد بولنـدة أربعين ألف مقاتل ،
والامبراطورية ستين ألفا . فاذا حاصر العثمانيون فيينا أو كراكو ، خف
الحليف لنجدة حليفه بقوته كلها .

وفى يوليو زحف العثمانيون على فيينا . وفى أغسطس غادر
سوبيسكى والجيش البولندى وارسو بهذا الهدف المغلن ، وهو « أن يمضوا
الى الحرب المقدسة ، وبردوا بعون الله الحرية القديمة لفيينا المحاصرة ،
فيعينوا بذلك جميع العالم المسيحى المتخاذل (٩) » . وبدا أن أنبل
ما عرفت العصور الوسطى من فروسية قد بعث من جديد . ووصل
البولنديون الى العاصمة المحاصرة فى الوقت المناسب ، لأن المرض
والجوع كادا يفتكان بأكثر المدافعين عنها . وقاد سوبيسكى بشخصه
جيشي بولنـدة والامبراطورية المجتمعين فى معركة من أحسم المعارك فى
التاريخ الأوروبى (١٢ سبتمبر ١٦٨٣) . ولقى نصف البولنديين الذين
تبعوه فى هذه الحرب الصليبية - وعددهم خمسة وعشرون ألفا - حتفهم
فى المعركة أو فى طريقهم اليها .

ثم قفل الى بولنـدة مكللا بنصر يشوبه شعر الخيبة . واستقبلته
وارسو فخورة به بطلا لأوروبا ، ولكن الامبراطور كان قد خيب آماله فى
٢ - قصة الحضارة

تزويج ابنه من أرشيدوقة النمسا . ولكي يؤمن ملكا لابنه حاول فتح
ملدافيا ، وانتصر في جميع المعارك الا معاركه مع الجو والقدر ، وعاد
الى بلده صفر اليمين .

ووسط ضجيج السياسة وصخبها ، وفي الفترات التي تخللت الحرب
جعل من بلاطه مركز احياء ثقافى . فلقد كان هو نفسه رجلا واسع الاطلاع:
درس جاليليو وهارفى ، وديكارت وجاسندى ، وقرا بسكال ، وكورنىي ،
وموليير . ومع أنه أيد الكنيسة الكاثوليكية باعتبار هذا التأييد سيامة
للدولة ، فانه بسط الحرية الدينية والحماية على البروتستانت واليهود (١٠)
واحبه اليهود كما أحبوا قيصر من قبل . وكان يريد ، وان لم يستطع ، أن
ينقذ من الموت رجلا من أحرار الفكر أعرب عن بعض شكوكه فى وجود
الله (١٦٨٩) (١١) ، وكان هذا أول احراق لمهرطق فى تاريخ بولنده .
ثم مضت بولنده فى انجاب شعرائها ، ولكنها ظلت تستورد أكثر فنانيها
الأفذاذ . فنظم فاكلاو بوتوكى ملحمة عن انتصار بولنده فى خوتين ،
وكتب فسبازيان كوشوفسكى ملاحم مماثلة ، ومجموعة مزامير بولندية
فى نثر شعرى ، أما أندرزى مورزيتن ، فبعد أن ترجم « أمينتا » تاسو و
« سيد » كورنىي ، أظهر فى غنائياته تأثير الشعر الفرنسى والايطالى فى
بولنده . وقد شجع سوبيسكى التأثير الفرنسى ، لأنه كان معجبا بكل شيء
فى فرنسا الا سياستها . واستقدم المصورين والمثالين الفرنسيين
والايطاليين ليعملوا فى وارسو ، واستخدم المعماريين ، ولا سيما
الأبطاليين منهم ، ليشيدوا قصورا بطراز الباروك فى فيلانوف ،
وزولكليف ، ويافوروف . وبنيت الكنائس الفخمة ابان حكمه : كنيسة
القديس بطرس فى فلنو وكنيسة الصليب المقدس والراهبات البندكتيات
فى وارسو . وأقبل أندرياس شلوتر من ألمانيا لحفر الزخارف للقصر
المبنى فى فيلانوف ، ولقصر كرازنسكى فى العاصمة . ووسط هذه
التأثيرات الغربية فى الفن ، غلب التأثير الشرقى فى الملبس والمظهر :
العباءة الطويلة والمنطقة العريضة الزاهية الألوان ، والشاربان المفتولان
الى أعلا كأنهما سيفان أحديان .

وقد كدر صفاء شيخوخة الملك تمرد ولده يعقوب ، وعناد زوجته ،
وفشله فى جعل الملك وراثيا فى أسرته . وكان الفيتو المطلق سيفا مصلتا
فوق رأسه على الدوام . ولم يستطع أن يصلح من حال الفلاحين ، لأن

سادتهم سيطروا على البرلمان ، ولم يستطع اكراه الأغنياء على دفع الضرائب ، لأن الأغنياء كانوا هم البرلمان ، ولم يستطع السيطرة على النبلاء المشاغبيين ، لأنهم أبوا أن يكون له جيش دائم . ومات من تبولن الدم في ١٧ يونيو ١٦٩٦ ، لأكسير القلب كما زعمت الرواية ، بل أسفا على انحدار بلده الحبيب من قمة البطولة التي رفعه اليها .

وتخطى الديت ابنه وباع التاج الى فردريك أوغسطس ، ناخب سكسونيا ، الذي تحول في غير عناء من البروتستنتية الى الكاثوليكية ليصبح أوغسطس الثانى ملك بولنده . وكان شخصية عجيبة فى ذاته . ويسميه التاريخ أوغسطس القوى ، لأنه كان الرياضي الشديد البأس فى جسمه وفراشه ، وقد نسبت اليه اسطورة انجاب ٣٥٤ طفلا غير شرعى (١٢) . وفى يناير ١٦٩٩ وقع فى كارلوفتز معاهدة نزلت بمقتضاها تركيا عن كل دعوى لها فى أوكرانيا الغربية . فلما شعر أوغسطس بالأمان فى الجنوب والشرق ، استمع الى باتكول ، وربط بولنده بحلف مع الدنمرك وروسيا لاقتسام السويد .

٣ - روسيا تتجه الى الغرب : ١٦٤٥ - ٩٩

استطاع كل من المتأمرين الثلاثة أن يخلق عذرا ويدعى استفزازا ما . فشارل العاشر ملك السويد كان قد حاصر كوبنهاجن وحاول فتح الدنمرك ، وغزا بولنده واستولى على عاصمتها ، وكان جوستافس ادولفس قد دعم قوة السويد فى ليفونيا واينجريا دعما أتاح له أن يتحدى روسيا أن تنزل زورقا فى البلطيق دون موافقة السويد . أما الدب الروسى الحبيس فكان يحرق الأرم لمراى المخارج كلها مغلقة فى الغرب ، والمنافذ الى البحر الأسود كلها يسدها التتار والترك . ولم يبق غير الشرق مجال لتحرك روسيا - الى سيبيريا ، وذلك يبدو الطريق الى الشدائد والهمجية . لقد كانت أسباب الراجة ومفاتن الحياة تومىء لروسيا أن تتجه غربا ، وكان الغرب مصمما على أن يبقى روسيا بلدا شرقيا .

وحين اعتلى الكسيس ميخايلوفتش رومانوف عرش القياصرة كانت روسيا لاتزال يطغى عليها طابع العصر الوسيط . فهى لم تعرف القانون الرومانى ، ولا انسانية النهضة الأوروبية ، ولا اصلاح الحركة

البروتستنتية . وفى عهد الكسيس صيغ القانون الروسى من جديد (أولوزينى ١٦٤٩) لكن هذه الصياغة لم تكن أكثر من جمع وتنسيق للقوانين القائمة المبنية على الحكم المطلق واستقامة العقيدة الدينية . فمثلا ظل القانون يرى من الجريمة أن يتطلع انسان الى الهلال الجديد أو أن يلعب الشطرنج أو يغفل الذهاب الى الكنيسة فى الصوم الكبير . وهذه الجرائم وعشرات غيرها تعاقب بالجلد . وكان الكسيس ذاته متعصبا فى تدينه رغم ما فى طبعه من لطف وسماحة ، وكثيرا ما كان ينفق خمس ساعات كل يوم فى الكنيسة ، وقد انحنى فى احدى المناسبات ألفا وخمسمائة انحناء (١٣) . وكان يبتهج باطعام الشحاذين الذين يتجمعون حول قصره ، ولكنه كان يعاقب كل انشقاق سياسى أو دينى عقابا صارما ، ويفرض الضرائب الباهظة على شعبه ، ويسمح لاستغلال الفلاحين وفساد للحكومة أن يستشريا الى درجة أشعلت الثورة فى موسكو ، ونوفجورود ، وسكوف ، وأهم من ذلك بين قوزاق نهر الدون . وقد ألف قوزاقى من هؤلاء يدعى ستينكا رازين عصاة لصوص ، وسلب الأغنياء وقتلهم ، ونصب نفسه سيدا على استراخان وزارتسين (التى أصبحت ستالنجراد) . ثم أقام جمهورية قوزاقية على الفولجا ، وهدد مرة بالاستيلاء على موسكو . وانتهى أمره بأن أسر وعذب حتى مات (١٦٧١) ، ولكن الفقراء حفظوا له ذكرى عزيزة تعدهم بالانتقام من الملك والحكومة .

على أن بعض المؤثرات العصرية سرت حتى الى هذه البيئة الوميطة فقد اقتضت الحروب مع بولنده اتصالات أكثر مع الغرب . وأقبل الدبلوماسيون والتجار فى أعداد متزايدة من بلاد أطلق عليها الروس اسم « أوربا » . وشهد نهر دويينا وئغرا ريجا وأركانجل تجارة نامية مع الدول الغربية . ودعى الفنيون الأجانب لتطوير المناجم ، وتنظيم الصناعة ، وصنع السلاح . ونمت مستوطنة كاملة للمهاجرين حوالى ١٦٥٠ فى أحد أحياء موسكو ، وجلب الألمان والبولنديون مسحة من الأدب والموسيقى الغربيين الى هذه المستوطنة ، وزودوا الأسر الروسية بمدرسين خصوصيين للاتينية . وكان لالكسيس نفسه أوركسترا المانى . وقد صنع لوزيره ارتامون ماتيفيف باستيراد الاثاث الغربى والعبادات الفرنسية ، الى حد اى حاجة اختلاط النساء بالرجال فى المجتمع . ولما

بعث السفير الروسي لدى دوق توسكانيا الأكبر الى الكسيس أوصافاً للدرامات والأوبرات والباليهات الفلورنسية ، سمح الكسيس ببناء مسرح فى موسكو ويعرض المسرحيات ، لا سيما المقتبسة من الكتاب المقدس .
وقد سبقت احداها ، وهى « استير » ، تمثيلية راسين التى تحمل هكنا الاسم بسبعة عشر عاما . ولما شعر الكسيس أنه أذنب باختلافه الى هذه الحفلات التمثيلية ، ذكرها لكاهن اعترافه ، فأباح له هذه المتسع الجديدة (١٤) . وتزوج ماتيف سيدة اسكتلندية تنتمى لأسرة هاملتن الشهيرة ، وقد تبنيها وربيا يتيمة روسية تدعى ناتاليا نارويشكينا ، وقد اتخذها الكسيس زوجة ثانية له .

على ان مغامرات التغريب هذه أثارت رد فعل وطنيا ، فشجب بعض الروس الارثوذكس دراسة اللاتينية باعتبارها شرا قد يغرى الشباب بالأفكار غير الأرثوذكسية . وأحس الجيل المخضرم أن أى تغيير فى العادات أو الايمان أو الطقوس يزيح حجرا فى بناء المجتمع ، ويقلقل الاحجار كلها ، وقد يهوى بعد حين بالبناء المزعزع كله ويحيله خرابا . وكان الدين فى روسيا يعتمد على الطقوس اعتماده على العقيدة . ومع أن قدرة الجماهير على تفهم الأفكار كانت الى ذلك الحين محدودة جدا ، فقد أمكن تدريبها على الطقوس الدينية التى أعان تكرارها المنوم على الاستقرار والسلام الاجتماعيين والنفسيين . ولكن التكرار يجب أن يكون دقيقا حتى يحدث الأثر المنوم ، وأى تغيير فى التتابع المألوف قد يحطم التعويذة المهدئة ، ومن هنا كان لابد من بقاء كل تفاصيل المراسم الدينية ، وكل كلمة من كلمات الصلوات ، على حالها كما كانت منذ قرون . وقد وقع خلاف من أشد الخلافات والانقسامات مرارة فى التاريخ الروسي حين أدخل نيكون ، بطريرك موسكو ، على الطقوس بعض الاصلاحات المبنية على دراسة للممارسات والنصوص البيزنطية . فقد دله الاكلييريكيون الذين درسوا اليونانية على أخطاء كثيرة فى النصوص التى تستعملها الكنيسة الروسية ، فأمر نيكون بمراجعة النصوص والطقوس وتنقيحها ، فمثلا تقرر أن يكتب اسم يسوع بعد ذلك *Jisus* بدلا من *Isus* ، وأن ترسم علامة الصليب بثلاثة أصابع لا أصبعين ، وأن يخفض عدد المطانيات (الركعات) فى صلاة معينة من اثنتى عشرة الى أربع ، وأن تحطم الأيقونات التى يظهر فيها التأثير الايطالى ويستبدل بها أيقونات تتبع

النماذج البيزنطية . وتقرر بصفة عامة أن يطابق مطابقة أوثق بين الشعائر الروسية وأصولها البيزنطية . وقد أنزلت رتب بعض رجال الكنيسة الروس الذين أبوا قبول هذه التغييرات أو أوقع عليهم الحرم أو نفوا الى سيبيريا . وساعت القيصر أساليب نيكون الدكتاتورية ، فنفاه في ١٦٦٧ الى دير ناء . وانقسمت الكنيسة الروسية الى حزبين ، فاما الكنيسة الرسمية التي يؤيدها الكسيس فقد قبلت الاصلاحات ، واما المخالفون (راسكولنيكي) أو قدامى المؤمنين (ستاروفيرتسي) فقد تطوروا الى هيئة منشقة اضطهدتها الارثوذكسية الجديدة بالنار والحديد . وقد أحرق زعيمهم أفاكوم على الخازوق (١٦٨١) بأمر القيصر فيودور . وقتل كثيرون من قدامى المؤمنين أنفسهم مؤثرين الموت على دفع الضرائب لحكومة كانت في نظرهم عدوا للمسيح . وهذه الفوضى الدينية كانت بعض التركة التي ورثها بطرس الأكبر .

ومهد موت الكسيس (١٦٧٦) لصراع عنيف بين أبنائه . فقد خلف من زوجته الأولى ماريا ميلوسلافسكي ولدا عليلا يدعى فيودور (المولود في ١٦٦٢) ، وآخر أعرج نصف أعمى ونصف معتوه يدعى ايفان (المولود في ١٦٦٦) ، وست بنات كانت أكفأهن وأشدهن طموحا صوفيا الكسيفنا (المولودة في ١٦٥٧) . وخلف من زوجته الثانية ناتاليا نارويشكينا ولده الأشهر بطرس (المولود في ١٦٧٢) . وورث فيودور العرش ، ولكنه مات في ١٦٨٢ . وأراد البويار (النبلاء الروس) أن يولوا بطرس عرش القيصرية ، بوصاية أمه ، لما رأوه من عجز ايفان الشديد . ولكن أخوات بطرس لأبيه كن يكرهن ناتاليا ويخشين أن يهملن تحت حكمها ، فحرضن جنود حامية موسكو (السترلتسي) ، تتزعمهن صوفيا ، على أن يغزوا الكرملين ويصروا على تنصيب ايفان . وناشد ماتفيف ، حاضن ناتاليا ، الجند أن ينسحبوا ، فانتزعوه من قبضة بطرس ، وقتلوه على مرأى من الصبي ذي العشرة الاعوام ، وقتلوا أخوة ناتاليا ونفرا من أنصارها ، وأكروهوا البويار على قبول ايفان قيصرا ، يشاركه بطرس تابعاله ، وصوفيا وصية عليه . ولعل هذه الفظائع أسهمت في إصابة بطرس بتلك التشنجات التي نغصت حياته فيما بعد ، وهي على أي حال أعطته دروما لا تنسي في العنف والوحشية .

واعتكفت ناتاليا مع بطرس فى احدى ضواحي موسكو المسماة بريوربرازينسكى . وحكمت صوفيا البلاد بكفاية . وقد استنكرت عزل النساء فى مساكنهن (التيريم اى الحریم forem) ، وظهرت أمام الناس سافرة ، ورأست فى غير خشية اجتماعات الرجال حيث راح الشيوخ يهزون رعوسهم أسفا وحسرة على هذه الوقاحة ، ولكنها كانت قد تلقت من التعليم أكثر من معظم الرجال المحيطين بها ، وكانت ميالة الى الاصلاح والى الأفكار الغربية ، واختارت رئيسا لوزرائها ، وربما عشيقا لها ، رجلا افتتن بحياة الغرب . وكان هذا الرجل ، وهو الأمير فازيلى جوليتسين ، يكتب اللاتينية ، ويعجب بفرنسا ، ويجمل قصره بالصور وقطع نسيج جوبلان المرسومة ، ويقتنى مكتبة كبيرة تضم كتبا لاتينية وبولندية وألمانية . والظاهر أن قدوته وتشجيعه كان لهما الفضل فى بناء ثلاثة آلاف مسكن حجرى بموسكو فى سنوات وصايته السبع ، فى حين كانت كل البيوت تشاد قبل ذلك بالخشب . ويبدو أنه كان يخطط لعق ارقاء الأرض (١٥) . وفى عهده ألغى الاسترقاق بسبب الدين ، وكفّت الحكومة عن دفن القتلة أحياء ، وألغيت عقوبة الاعدام على التفوه بعبارات التحريض . على أن جهوده فى الاصلاح أودى بها فشله فى قيادة الجيش ، فقد أعاد تنظيمه وقاده مرتين ضد الترك ، وفى الحالتين أساء ادارة تموين الجند ، فعادوا مهزومين متمردين ، وأعطى سخطهم بطرس الاشارة للقبض على زمام السلطة .

٤ - بطرس يتعلم

كان يتلقى التعليم من أمه ، ومن معلميه الخصوصيين ، ومن جولاته فى شوارع موسكو . ولم يكن مبكر النضج ، ولكنه كان تواقا الى العمل ، طلعة ، ذكيا ، بهرته الآلات المجلوبة من الغرب كالساعات ، والاسلحة ، والأدوات . وهفت نفسه الى روسيا تنافس الغرب فى فنون الصناعة والحرب . وكان يحب لعب الألعاب الحربية مع رفاقه الخشنيين - كبناء القلاع ، ومهاجمتها ، والدفاع عنها . وحلم ببحرية روسية قبل أن يتاح لروسيا الوصول الى بحر لا يتجمد ؛ فبنى قوارب أكبر فأكبر ، حتى اضطر الى رحلة ثمانين ميلا من موسكو ليجد فى بيريسلافل بحيرة يستطيع أن يعوم فيها أسطوله الصغير .

فلما اشتد عوده ازداد ضيقه بهيمنة أخت غير شقيقة ، اغتصبت مع
فازيلي جوليتسين سلطة ايفان وسلطته . وفي ١٨ يوليو ١٦٨٩ ، انضم
بطرس الى ايفان في الموكب الذي كان يحتفل كل سنة بتحرير موسكو
من قبضة البولنديين . ومشت صوفيا في الموكب على غير ما قضت به
التقاليد . فأمرها بطرس ، وقد بلغ الآن السابعة عشرة ، أن تنسحب ،
ولكنها أصرت على السير ، فغادر المدينة غاضبا ، وبحث عن حلفاء ضد
الوصية . فوجدهم في « البويار » الذين لم يستطيعوا أن يروضوا أنفسهم
على الرضي بحكم امرأة ، وفي حامية موسكو (الستريلتسي) ، التي كان
رجالها على استعداد للخدع الحربية والاسلاب بعد أن صدتهم صوفيا غير
مرة . وحرك بوريس جوليتسين ، ابن عم الوزير ، الانقلاب بإرساله
رسالة مزورة الى بطرس زعمت أن صوفيا تدبر القبض عليه . وفر بطرس
وتبعته أمه ، وأخته ، وزوجته التي تزوجها مؤخرا ، الى دير ترويتسكو
- سرجيفسكايا ، على خمسة وأربعين ميلا من موسكو . ومن هناك أرسل
الأوامر لكل كولونيل في الحامية بالذهاب الى الدير المذكور . ونهتهم
صوفيا عن الذهاب ، ولكن كثيرين ذهبوا . وسرعان ما أقبل زعماء
الأشراف ، ثم يواقيم بطريك موسكو . واستدعى فازيلي جوليتسين ،
فخضع ، ونفى الى قرية قريبة من أركانجل . وقبض على نفر من مؤيدي
صوفيا ، وعذب بعضهم ، وأعدم آخرون . وكتب بطرس لايفان يستأذنه
في تقلد زمام الحكم ، فأعطى ايفان الاذن أو افترض أنه أعطاه ، وأمر
بطرس صوفيا أن ترحل الى دير للراهبات ، فاحتجت ، وتمردت ، ثم
استسلمت . وهناك زودت بكل أسباب الراحة وبالخدم الكثيرين ، ولكن
حظر عليها أن تبرح الدير . وفي ١٦ أكتوبر ١٦٨٩ دخل بطرس موسكو ،
ورحب به ايفان ، فتقلد زمام السلطة العليا . واعتزل ايفان الحياة العامة
في لياقة ، ومات بعد سبع سنوات .

على أن بطرس لم يكن قد تهيأ بعد للحكم . فترك الحكومة لبوريس
جوليتسين المتزمت الرجعي ، وليواقيم ، وغيرهما ، بينما انفق هو
كثيرا من وقته في المستوطنة الأجنبية . وهناك صنع أصدقاء جددا كانوا
ذوى أثر قوى في تطوره . ومن هؤلاء باتريك جوردون الاسكتلندي ،
المقاتل المغامر الذي كان الآن ضابطا في الجيش الروسي وهو في الخامسة
والخمسين ، ومنه تعلم بطرس المزيد عن فنون الحرب . ثم فرانسوا

ليفور ، الذى ولد فى جنيف ، وكان الآن لواء فى الرابعة والثلاثين . وقد ابتهج القيصر الشاب بحسن طلعته وسرعة خاطره وأسالبيه اللطيفة ، فكان يتناول الطعام معه مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع ، الأمر الذى أفرع أهل موسكو ، فهم ينظرون الى جميع الأجانب نظرتهم الى المهرطقين للإشرار . وقد فضل بطرس عشرة هذين الأجانبين على عشرة الروس ، لأنه رأهما أكثر تحضرا وان لم يقلا عن الروس امرافا فى الشراب ، وقد هاقا الروس كثيرا فى معارفهما الصناعية والعلمية والحربية ، وكان حديثهما أرقى وملاهيتهما أرفع . ولاحظ بطرس تسامحهما المتبادل فى أمور الدين - فجوردون كان كاثوليكيًا ، وليفور بروتستانتيا - ووقف فى ابتسام عرابا للأطفال الكاثوليك والبروتستانت على السواء عند جرن المعمودية . ثم تعلم من لغتى الألمان والهولنديين ما يكفى لتحقيق أهدافه .

أما أهدافه هذه فهي أن يجعل روسيا شديدة البأس فى الحرب ، منافسة للغرب فى فنون السلم . لقد تعلم من النزيل الهولندى ، البارون فون كيلر ، كيف حافظ الهولنديون على ثروتهم وقوتهم ببناء السفن الجيدة . وتاقت نفسه لإيجاد منفذ الى البحر ، ولبناء أسطول بحرى . ولم يكن له منفذ بحرى الا فى أركانجل ، التى كان يكتنفها الجليد نصف العام . ومع ذلك اتخذ طريقه اليها فى ١٦٩٣ . واشترى سفينة حربية هولندية رأسية فى الميناء ، فلما تغلب على خوفه من البحر وأبحر على هذه السفينة أسكرته الفرحة ، وكتب الى ليفور يقول : « متقودها أنت ، وسأخدم أنا بحارا بسيطا فيها (١٦) » . وارتدى سترة قبطان هولندى ، واختلط مغتبطا بالبحارة الهولنديين فى حانات الثغر . لقد كان الهواء الملح الذى هب عليه من ذلك البحر البارد نسمة منعشة من الغرب ، من ذلك الاقليم ، اقليم الصناعة والمنعة والعلم والفن ، الذى كان يناديه فى اغراء يزداد قوة يوما بعد يوم .

وكان هناك طريقان عمليان الى الغرب : أولهما طريق البلطيق الذى تسده السويد وبولنده ، وثانيهما طريق البحر الأسود ، الذى يسده التتار والترك . وكان التتار والترك يسيطران عند أزوف على مصب الدون ، ويغيران المرة بعد المرة على الأراضى الموسكوفية ، ويأسران الروس - أحيانا عشرين ألفا فى سنة واحدة - ليبيعوهم عبيدا فى

الاستانة . وفى ١٦٩٥ أمر بطرس جيشه أن ينتقل من التلهمى بالألعاب الى التمرس بالحرب ، وأن يزحف مخترقا السهوب ، ويبحر هابطا الأنهار ، ويهاجم آزوف . واضطلع ثلاثة قواد بالقيادة قسمة بينهم - جولوفين ، وجوردون ، وليفور . وعمل بطرس بتواضع مدفعيا برتبة رقيب فى فوج بريوبرازينسكى . وأسئلت ادارة العملية ، وكان الجند سيئى التدريب ، وبعد أربعة عشر أسبوعا من التضحيات ألق الروس عن الحصار ، وعاد بطرس الى موسكو وهو يقسم ليدربن جيشا أفضل ويعيدن الكرة .

وبنى فورونيز أسطول ناقلات وبوارج . وفى مايو ١٦٩٦ أبحر هابطا الدون على رأس ٧٥٠٠٠ رجل ، واستأنف حصار آزوف . وفى يوليو ، ويفضل بسالة قوزاق الدون على الأخص ، استولى الروس على المدينة . وعلى الفور أمر بطرس ببناء أسطول كبير فى فورونيز ليعمل فى البحر الاسود . وفى سبيل هذا الهدف فرضت الضرائب على روسيا كلها بما فيها كبار ملاك الأراضى ، وجند العمال ، وجلبت الآلات الأجنبية . وبعث خمسون من أشرف الروس على نفقتهم الى ايطاليا ، وهولنده ، وانجلترا ، ليتعلموا فن بناء السفن . وفى ١٠ مارس ١٦٩٧ تبعهم بطرس .

ولو خطر ببال روسيا أن القيصر سيمضى الى بلاد تدنسها الهرطقة لأفزعتهما الفكرة وروعتهما . لذلك نظم سفارة من خمسة وخمسين نبيلًا ومائتى تابع ، يرأسها ليفور ، لتزور « أوربا » وتبحث عن حلفاء ضد الترك . وكان من هؤلاء المبعوثين الخمسة والخمسين صف ضابط لا يدعى الا باسم بطرس ميخايلوف ، ويستعمل ختما عليه صورة نجار سفن وهذه العبارة « رتبى تلميذ ، وأنا فى حاجة الى معلمين (١٧) » فلما خرج بطرس من روسيا ، لم يدقق فى الاحتفاظ بهذا التنكر ، فقد استضافه ناخب براندنبورج فردريك الثالث ، والملك وليم الثالث فى انجلترا ، والامبراطور ليوبولد الأول فى فيينا ، بوصفه قيصر روسيا . ولقد صدم أهل القصور ، حتى وهو يسفر عن مقامه الملكى ، بجلافة سلوكه وحديثه ، ويقذارته واهماله ، ويعزوفه عن استعمال السكين والشوكة (١٨) . ولكنه شق طريقه .

ولقيت السفارة المصاعب - التي لم ينسها بطرس قط - في سفرها الى ريجا مخترقة ليفونيا السويدية . ومن هناك أسرع الى كونيغزبيرج . حيث وقع مع الناخب معاهدة تجارة وصدقة . وفي براندنبورج درس المدفعية والتحصين على يد مهندس حربي بروسي أعطاه شهادة بتقدمه . وفي كوبنبروجى أقنعتة صوفيا ، ناخبة هانوفر الأرملة ، وابنتها صوفيا شارلوت ، ناخبة براندنبورج ، هو وبطانته بالعشاء والرقص معهما وقد وصفته الناخبة الأرملة فيما بعد بهذه العبارات :

« ان القيصر رجل فارح الطول ، دقيق الملامح ، رائح السميت ، له ذهن شديد الحيوية ، وبديهة حاضرة وليت عاداته أقل جلافة كان مرحا جدا ، كثير الحديث ، وقد كونا صداقة حميمة فيما بيننا أخبرنا أنه يعمل في بناء السفن ، وأرانا يديه ، وجعلنا نلمس المواضع القاسية التي خلفها بهما العمل انه رجل شديد الغرابة طيب القلب جدا ، نبيل العاطفة الى حد عجيب ولم يشرب حتى يثمل في حضرتنا ، ولكن ما ان بارحنا المكان حتى عوض أفراد بطانته عن قصده في الشراب وهو حساس لمفاتيح الجمال ولكنى لم اجد فيه ميلا للتودد للنساء وفي أثناء الرقص حسب الموسكوفيون عظام الحوت المصنوعة منها مشدأتنا عظامنا ، وأبدى القيصر دهشته بقوله ان للنساء الألمانيات عظاما قاسية الى حد رهيب (١٩) » .

ومن كوبنبروجى ، أبحرت السفارة هابطة الرين الى هولنده وترك بطرس ونفر من أخصائه أكثر الجماعة في امستردام ، ومضوا الى زاندام ، وكانت يومها مركزا كبيرا لبناء السفن (١٨ أغسطس ١٦٩٧) . فقد سمع الكثير ، حتى في روسيا ، عن مهارة بناء السفن في هذه المدينة الجميلة . وتعرف في شوارعها على صانع عرفه في موسكو ، اسمه جيريت كيست . وطالب اليه بطرس أن يتستر على تنكره ، واقترح أن يسكن كوخ كيست الخشبي الصغير . وهناك مكث أسبوعا يرتدى زي عامل هولندي ، وينفق نهاره في مراقبة نجارى السفن وهم يشتغلون ، ويجد في ليله متسعا لمنازلة فتاة تخدم في حانة الحى . وفي سنوات لاحقة زار جوزف الثانى ونابليون هذا الكوخ كأنه مكان مقدس ، وجمّله القيصر اسكندر الأول بلوحة رخامية ، وكتب شاعر

هولندى على الحائط بيتا مشهورا : لا شيء يصغر فى نظر الرجل العظيم (٢٠) .

فلما ضاق بطرس بالجموع التى تبعته فى كل خطوة بزاندام ، عاد الى أمستردام وسفارته . وهنا أيضا أصر على التبرك ، ولكنه سمى نفسه الآن « النجار بطرس الزاندامى » . واقنع شركة الهند الشرقية الهولندية بأن تسمح له بالانخراط فى سلك عملها بأحواض السفن فى أوستنبورج وهناك اشتغل بهمة مع عشرة من أتباعه طوال شهر أربعة ، وعاونوا فى بناء سفينة وانزالها الى الماء . ولم يسمح بأى تفرقة بينه وبين العمال الآخرين ، وحمل على كتفه الأخشاب كما حملها سائرهم . وكان فى الليل يدرس الهندسة ونظرية بناء السفن ، وتبين مذكراته مبلغ دقة هذه الدراسات . ووجد متسعا من الوقت لزيارة المصانع ، والورش ، ومتاحف التشريح ، والحدائق النباتية ، والمسارح ، والمستشفيات . وقابل الطبيب وعالم النبات العظيم بويرهافى ، ودرس المكروسكوبيا على ليوفينهويك ، واصطحب بطانته الى مدرج تشريح بويرهافى . ودرس الهندسة الحربية على البارون فان كويهورن ، والعمارة على شينفويت ، والميكانيكا على فان درهيدين . وتعلم كيف يخلع الأسنان ، ولقى بعض مساعديه عنقا من جراء حماسته فى علاج الأسنان . ودخل منازل الهولنديين ليدرس حياتهم الأسرية وتنظيم بيوتهم . واشترى فى الأسواق ، وخالط الناس ، وتعجب من حرفهم المتنوعة ، وتعلم أن يصلح ملابسه ويرقع حذاءه . واحتسى الجعة والنبيد مع الهولنديين فى مشاربهم . وأغلب الظن أن التاريخ لم يشهد رجلا أشوق منه الى تشرب الحياة وتذوقها .

وفى هذا النشاط كله لم تغب روسيا عن نظره . فوجه برسائله أعمال حكومتها النائبة عنه . واستخدم وأرسل الى روسيا عدة قباطنة بحريين ، وخمسة وثلاثين ملازما ، واثنين وسبعين مرشدا ، وخمسين طبيبا ، وأربعة طباطخين ، و ٣٤٥ بحارا . وبعث الى روسيا على عجل ٢٦٠ صندوقا من البنادق ، وقماش القلوع ، والبوصلات ، وعظم الحوت والفلين ، والمراسي ، والعدد ، وحتى ثمانى قطع من الرخام ليشغل عليها النحاتون الروس (٢١) . ولكن اهتمامه كان يفتر اذا اتصل الأمر بتهديب العادات ، أو لطائف المجتمع ، أو دقائق الفكر ، ولم يكن لديه

متسع من الوقت للميتافيزيقا أو المراقص أو الصالونات ، وعلى أية حال لا ضير في أن ترجأ هذه الأشياء غير الملموسة . أما الآن فمهمته أن يدخل صنائع الغرب وعلومه العملية الى روسيا « حتى اذا تمكنا منها تمكنا كاملا استطعنا عند عودتنا الى الوطن أن ننتصر على أعداء يسوع المسيح (٢٢) » وهو يقصد الاستيلاء على الآستانة واطلاق روسيا من سجنها لتعبر اليوسفور الى العالم .

وبعد أن قضي في هولنده أربعة شهور طلب الى وليم الثالث الأذن له بزيارة انجلترا ، شبه متنكر أيضا . وبعث وليم باليخت الملكي ليأتي به ، ووصل بطرس الى لندن في يناير ١٦٩٨ . ومع أن الوقت كان شتاء فانه زار أرصفة الموانئ والمؤسسات البحرية ، والجمعية الملكية ، ودار ضرب النقود ، ولعله التقى بنيوتن هناك . وقلب ايفلين بيته رهيا أرضه بعناية في دبتفورد لبطرس وجماعته ، وقد منحت الحكومة الانجليزية السر جون بعد ذلك ٣٥٠ جنيها ليصلح التلف الذي أحدثه الروس . وأدهش القيصر جيرانه بالذهاب الى فراشه مبكرا ، والاستيقاظ في الرابعة ، والسير الى أحواض السفن يحمل على كتفه بلطة وفي فمه « بيبة » . واتخذ ممثلة كبيرة خلية له ، وقد شكت من ضالة المال الذي نقدها اياه . وتسلم درجة الدكتوراة في القانون في اكسفورد ، وحضر الخدمات البروتستنتية في لياقة توقع معها القساوسة الانجليز أنه سيحول روسيا الى حركة الاصلاح البروتستانتى . وحاول الأسقف بيرنت التأثير عليه ، فوجده محبا للاستطلاع ولكنه لا يلتزم بموقف متميز ، وخلص الى أن القيصر « هيأته الطبيعة فيما يبدو لأن يكون نجار سفن أكثر منه ملكا عظيما (٢٣) » .

وأبحر بطرس عائدا الى أمستردام بعد أن أنفق أربعة اشهر في انجلترا ، وانضم الى بعثته ، وواصل معهم رحلته الى فيينا مرورا بليبزج ودرسدن (٢٦ يونيو ١٦٩٨) . وعبثا حاول ، طوال شهر نفسه خلاله صبره ، أن يضم الامبراطور اليه في حلف ضد تركيا . وقد تلتف مع اليسوعيين الذين بدأوا يحلمون بروسيا الكاثوليكية الرومانية . وبينما هو على وشك مغادرة فيينا ، وصلته رسالة تنبئه بأن حامية موسكو تمردت ، وأنها تهدد بالاستيلاء على موسكو وعلى مقاليد الحكم . فخف

من فوره الى روسيا ، ولكن قرب كراكو وصله تأكيد بأن الثورة أخمدت .
ولبت أربعة أيام فى رافا مع أوغسطس الثانى ملك بولنده . وأدهشه
رأبتهجه ن يجد ملكا يستطيع أن يباريه فى قوة البدن ، وصيد الوحوش ،
والاسراف فى الشراب . وقد أحب أحدهما الآخر ، وتعانقا ، وتناقشا فى
أى البلدين يجب أن يكون أول ضحية لصداقتهما ، السويد أم تركيا .
وفى ٤ سبتمبر وصل بطرس الى موسكو بعد ثمانية عشر شهرا من رحلة
عينت فى رأى ماكولى « حقة فى التاريخ - لا تاريخ بلده فحسب ... »
بل تاريخ العالم (٢٤) . لقد اكتشفت روسيا أوروبا ، واكتشفت أوروبا
روسيا . وبدأ لبينتز يدرس الروسية .

على أن بطرس كان لا يزال له طبع مسكوفىي القرن السابع عشر .
انه لم يغتفر قط لحامية موسكو اشتراكهم فى قتل أخواله وماتيفى ، وفى
تمكين صوفيا من اغتصاب السلطة . ولم يكن فى خططه لتنظيم جيش
جديد مكان لهذا « الحرس الامبراطورى » المثير للمتاعب . فلما نمت
اليه أن صوفيا فاوضتهم من ديرها ليعيدوها الى الحكم ، وأنهم هددوا
ليفور وغيره من أهل « المستوطنة الألمانية » ، وأنهم أذاعوا الشائعات
بانه يخون ديانة روسيا فى ولعه بالغرب ، استحال غضبه تشنجا يطلب
الانتقام . فأمر بتعذيب نفر كبير من الحامية ليحملهم على الاعتراف
بدور صوفيا فى تمردهم ، ولكنهم تجلدوا لأروع ضرب العذاب دون أن
يحملوها أى تبعة ، وأمر بتعذيب أتباعها بنفس الهدف والنتيجة .
وأكرهت صوفيا على أن تقطع على نفسها نذر الرهينة ، وأحكم حبسها
فى ديرها ، حيث ماتت بعد ست سنوات . ثم أعدم ألفا من رجال الحامية
قتل بطرس منهم خمسة بيده ، وأكره مساعديه على أن يقتلوا به ، ولكن
ليفور أبى . وما وافى عام ١٧٠٥ حتى كانت حامية موسكو (السترلتسى)
قد اختفت من التاريخ .

وشرع بطرس من فوره فى بناء جيش جديد . وكان الجيش القديم
قوامه رجال الحامية ، والمرتزة الاجانب ، والمجندون من الفلاحين
جمعهم الأشراف . فاستبدل بطرس بهذا الخليط جيشا دائما عدته
٢١٠٠٠ مقاتل بتجنيد رجلا من كل عشرين أسرة من أسر الفلاحين .
والبس هؤلاء الجنود سترات عسكرية « أوربية » ودربوا على تكتيك
المغرب . أما مدة الخدمة لجميع الرتب فهى مدى الحياة . فضلا عن

هذا دعا بطرس ١٠٠٠٠٠ قوزاقى للخدمة . وبنيت السفن على عجل على البحيرات ، والأنهار ، والبحار ، فما وافى عام ١٧٠٥ حتى كان للبحرية الروسية ثمان وأربعون بارجة ، وثمانمائة سفينة أصغر منها ، و ٢٨٠٠٠ بحار .

كان هذا كله لا يزال فى طريق التنفيذ ، ناقصا لم يكتمل بعد ، حين جاء باتكول الى موسكو واقترح أن ينضم بطرس الى فردريك الرابع ملك الدنمرك وأوغسطس الثانى ملك بولنده ليطردوا السويد من أرض القارة وينتزعوا منها الهيمنة على البلطيق . ورأى بطرس أن كل هذه السفن التى يجرى بناؤها تتوق لأن تمخر عباب البحر ، وهى تؤثر البحر المتوسط الدافىء - ولكن الامبراطورية العثمانية كانت لا تزال قوية الى حد يفت فى العضد . وكانت الآستانة عصية على الهجوم ، والنمسا وفرنسا الآن صديقتين للأتراك . فعلى روسيا اذن أن تتطلع الى الباب الآخر ، وأن تلتمس لها منفذا فى الشمال . وكان من سوء التوقيت أن يحضر المبعوثون السويديون الى موسكو قبيل ذلك ويحصلوا على موافقة بطرس على تجديد معاهدة كاردس التى تعاهدت فيها روسيا والسويد على السلام . ولكن الجغرافيا والتجارة تهزان بالمعاهدات . ثم ألم يكن ساحل البلطيق بين نهري نيفا ونارفا - ولايتا اينجريا وكاريليا - من قبل ملكا لروسيا ، ولم يسلم للسويد فى ١٦١٦ الا لأن روسيا كانت فى فترة شدتها تلك عاجزة عن المقاومة ؟ فلم لا تسترد القوة ما أخذ بالقوة ؟ وعلى ذلك ، ففي ٢٢ نوفمبر ١٦٩٩ انضم بطرس الى الحلف ضد السويد ، واتخذ أهبطه لشق طريقه الى البلطيق . وفى ٨ أغسطس ١٧٠٠ أمن جبهته الجنوبية على قدر ما تستطيع معاهدة تأمينها ، وذلك بإبرامه صلحا مع تركيا . فى ذلك اليوم بعينه أمر جيشه بالزحف على ليفونيا السويدية .

٥ - شارل الثانى عشر والحرب الشمالية الكبرى :

١٧٠٠ - ٢١

ونمى الى استوكهولم نبأ غامض عن اتفاق الحلف . فالتسام المجلس الملكى ليناقدش اجراءات الدفاع . وكان الرأى الغالب وجوب فتح باب المفاوضات مع أحد الحلفاء لعقد صلح منفرد معه . واستمع شارل

مليا وهو صامت ، ثم انتفض قائما وقال : « ايها السادة ، لقد عقدت النية على ألا أخوض حربا ظالمة ما حييت ولكنى ... لن أنهي حربا عادلة الا بالقضاء المبرم على أعدائي (٢٥) » . ثم طلق كل لهو وترف واتصال بالنساء ومعاقرة للخمر . وكان جيشه وبحريته مستعدين ، فغادر معهما استوكهولم فى ٢٤ أبريل ١٧٠٠ ليبدأ واحدة من أروع السير الحربية فى التاريخ . ولم يشهد عاصمة ملكه بعدها قط .

وبدا بمهاجمة الدنمرك ، فقد كان عليه أن يحمى ولايات السويد الجنوبية من هجمات الدنمرك وهو يواجه بولنده وروسيا . ثم قاد سفنه عبر مضيق الساوند - المفترض أنه لا يصلح للملاحة - بما عهد فيه من جرأة وسرعة ، رغم اعتراض أميرال بحريته ، ورسا على سييلاند ، التى لا تبعد عن كوبنهاجن سوى أميال (٤ أغسطس ١٧٠٠) . وسارع فردريك الرابع ملك الدنمرك الى إبرام صلح ترافندال معه (١٨ أغسطس) خشية أن تسقط عاصمته ، ودفع تعويضا قدره ٢٠٠٠٠٠ ريال دنمركى ، وأقسم انه لن يهاجم السويد أبدا .

وفى مايو ١٧٠٠ حاول أوغسطس الثانى الاستيلاء على ريجا . ولكن هزمه الكونت ايريك دالبيرج ، القائد السويدي البالغ من العمر خمسة وسبعين عاما ، والذي اكتسب لقب « فويان السويد » لمهارته فى فن التحصين . وتقهقر أوغسطس وناشد بطرس أن يخفف عنسه بغزوه اينجريا . واستجاب بطرس بأن أمر أربعين ألف مقاتل بحصار نارفا . وأراد شارل الثانى عشر أن يساعد دالبيرج ، فنقل جيشه بالبحر الى برناو (بارنو) ، على خليج ريجا ، ولكنه حين وجد ذلك المقاتل منتصرا ، اتجه شمالا . واخترق المناقع والممرات الخطرة ثم ظهر فجأة فى مؤخرة جيش بطرس . وأخذ القيصر على غرة ، فبدر منه ما بدا جبنا معيبا ، اذ ترك الجيش (الذى كان يخدم فيه ملازما فقط) ، وفر الى نوفجورود وموسكو . وأغلب الظن أنه عرف أن مجنديه الغشم سينهارون فى أول امتحان لهم ، ولم يكن فى وسعه أن يترك العدو يأسره ، لأنه رأى نفسه أعظم قيمة لروسيا حيا منه ميتا . أما الجيش الروسى ، الذى بلغ أربعين ألفا ، والذي كان يقوده الامير المجرى كارل يوجين ديكروا قيادة عاجزة ، فقد هزمه جنود شارل الثمانية الآلاف فى موقعة نارفا (٢٠ نوفمبر ١٧٠٠) ، وكانت أول نكسة فى حياة بطرس بعد صباه .

وألح القواد السويديون على شارل فى أن يزحف على موسكو ويجهز على بطرس . ولكن جيش شارل كان صغيرا ، والشتاء حل ، وكل شجاعة ، حتى شجاعة هذا النابليون الشاب ، لابد أن تتردد أمام مسافات روسيا المترامية فضلا عن مشكلة اطعام الجيش فى أرض معادية . ثم (ما دامت العهود والمواثيق حبرا على ورق) هل يستطيع أن يركن الى ملك الدنمرك ، أو ملك بولنده ، فى ألا يغزو أحدهما السويد وجيشها الرئيسي وقائدها نائيان عن أرض الوطن ؟ وبعد أن أعاد شارل تنظيم حكومة ليفونيا ودفاعها ، سار جنوبا الى بولنده ، واحتل وارسو دون عناء (١٧٠٢) على نحو ما فعل جده قبل سبعة وأربعين عاما ، وخلع أوغسطس ، ونصب ستانيسلاس لذكزنسكى ملكا على بولنده (١٧٠٤) . لقد هزم الآن كل حليف من الحلفاء ، ولكن الدب الروسي لم يكذبدا النزال .

ذلك أن بطرس لم يفق من رعبه فحسب ، بل نظم جيشا آخر وجهزه . ولكى يزوده بالمدافع أمر بأن تصهر أجراس الكنائس والأديار ، وصنع ثلاثمائة مدفع ، وأنشئت مدرسة لتدريب رجال المدفعية . وسرعان ما أخذت القوات المجندة الجديدة فى احراز الانتصارات ، وتقدمت كتيبة مدفعية بطرس غيرها فى الاستيلاء على نينسكانس ، عند مصب نيفا (١٧٠٣) ، وهنا شرع القيصر لتوه فى بناء « بطرسبرج » دون أن يدرك الى ذلك الحين أنها ستكون عاصمة ملكه ، ولكنه صمم على أن تكون أحد منافذه الى البحر . وبينما كان شارل مشغولا فى بولنده ، ظهر بطرس ثانية أمام نارفا . وكان شارل قد ترك فيها حامية ضئيلة ، واقتحم الروس القلعة الكبيرة (٢٠ أغسطس ١٧٠٤) ، وثار المنتصرون لأنفسهم من فشلهم السابق بمذبحة رهيبية ، وضع لها بطرس حدا فى النهاية بأن قتل بيديه اثنى عشر من الروس المتعطشين للدماء .

وفى بولنده بدا أن انتصار شارل كامل . فقد وقع أوغسطس المخلوع معاهدة اعترف فيها بلزكزنسكى رلكا ، وتخلى عن أحلافه ضد السويد ، وأسلم لشارل الرجل الذى نظم الحلف أولا ، فحطم جسده يوهان فون باتكول على دولاب التعذيب ثم قطع رأسه (١٧٠٧) . ووجد بطرس نفسه وحيدا أمام هذا الارهاب السويدي الشاب . فحاول

أن يرشو الوزارة الانجليزية لترتب له صلحا ، ولكنها رفضت أن تتدخل . ومضى عامل بطرس رأسا الى ملبره ، فوافق على الوساطة لقاء امارة فى روسيا (٢٦) ، وعرض عليه بطرس كييف أو فلاديمير أو سيبيريا ، وضمانا من خمسين ألف طالبير فى العام ، و « ياقوتة ماسية لا يملك نظيرها أى ملك أوربى » (٢٧) ، ولكن هذه المفاوضات أخفقت . وتعاطف الساسة الغربيون مع شارل ، واحتقروا أوغسطس ، وخافوا من بطرس ، وكانت حجة بعضهم أنه لو سمح لروسيا بالتوسع غربا ، فان أوربا كلها سترتعد بعد قليل أمام فيضان سلافى (٢٨) .

وفى أول يناير ١٧٠٨ عبر شارل الفستولا فوق جليد غير مأمون على رأس ٤٤٠٠٠ مقاتل نصفهم من الفرسان . فوصل الى جرودنو فى اليوم السادس والعشرين بعد أن رحل عنها بطرس بساعتين فقط . ذلك أن رأى القيصر استقر على الدفاع بالعمق والتخريب . فأمر جيوشه بأن تتقهقر ، وتستدرج شارل ليوغل داخل الفرشة الروسية أبعد فأبعد ، وتحرق كل المحاصيل أثناء مسيرتها ، وأمر الفلاحين بأن يخفوا قمحهم فى باطن الأرض أو تحت الثلوج ، ويشتتوا ماشيتهم فى الغابات والمستنقعات . وعهد الى الزعيم القوزاقى ايفان مازيبا بمهمة الدفاع عن « روسيا الصغيرة » وأوكرانيا . وكان مازيبا قد نشيء وصيفا فى البلاط البولندى ، وبأمر من نبيل بولندى أغوى ايفان زوجته ربط عريانا على حصان أوكرانى وحشى ، وأرهب الحصان عمدا بضربات سوط واطلاق مسدس عند أذنه (كما سيروى بيرون) ، واندفع الحصان خلال الأخراج والغابات الى مسارحه الأولى ، ولكن مازيبا ظل على قيد الحياة وان تمزق لحمه وسال دمه ، وارتقى حتى أصبح زعيما لقوزان زابوروج . وتظاهر بالولاء لبطرس ، ولكنه كره أوتقراطية القيصر ، وترقب الفرصة للثورة . فلما سمع بأن بطرس يتقهقر وشارل يتقدم ، قرر أن فرصته قد حانت . فأرسل الى شارل يعرض عليه التعاون معه .

ولعل هذا العرض هو الذى حدا بشارل الى المضي فى زحفه المتهور داخل روسيا . وبدأت سياسة « الأرض المحرقة » تؤتى ثمارها ، فلم يجد السويديون غير برية متفحمة فى طريقهم وأخذوا يتضورون جوعا . وكان شارل قد اعتمد على تعزيزات انتظر وصولها من ريجا ،

وقد حاولت أن تصله ولكن الروس دمروها نصف تدمير في طريقها .
وعلى شارل نفسه بأن مازيبا سينضم اليه بالامداد وقوة قوزاق الدنيبر
كاملة ، ولكن بطرس ، الذي توجس من خيانة مازيبا ، جرد جيشا
بقيادة الكسندر دانيلوفتش منشيكوف ليقبض عليه ، وفوجيء الزعيم
قبل أن يستطيع ايقاظ فرسانه ، ففر الى شارل عند هوركي جالبا معه
ألفا وثلثمائة رجل فقط . وزحف شارل جنوبا ليستولى على عاصمة
مازيبا ، واسمها باتورين ، ويأخذ مؤننها ، ولكن منشيكوف سبقه اليها ،
وأحرق المدينة وسواها بالقرب ، وعين زعيما مواليا لروسيا . واستعمل
بطرس كل سلاح ، فثنى القوزاق عن الانضمام الى السويديين
بمنشورات وصفت الغزاة بأنهم مهرطقون « ينكرون عقائد الدين
الصحيح ويصفون على صورة العذراء المقدسة » (٢٩) . ولم يبق
لشارل من أمل الا في أن يخف التتار والترك لنجدته انتقاما لاستيلاء
بطرس على آزوف .

ولكن أحدا لم يأت ، وكان شتاء ١٧٠٨ - ٩ عدوا رهيبا
للسويديين . كان شتاء قارسا جدا في كل أرجاء أوربا ، فتجمد البلطيق
الى عمق سمح لعربات النقل الثقيلة أن تعبر الساوند على الجليد ،
وفي ألمانيا ماتت أشجار الفاكهة ، وغطى الجليد الرون في فرنسا ،
والقنوات في البندقية . وفي أوكرانيا كست الثلوج الأرض ، من أول
أكتوبر الى ٥ أبريل ، وسقطت الطيور نافقة أثناء طيرانها ، وتجمد
اللعباب في طريقه من الفم الى الأرض ، وتجمد النبيذ والمسكرات
فأصبحت كتلا صلبة ، واستحال اشعال الحطب في العراء ، وكانت
الريح ماضية كالمدى في هبوبها على السهول المنبسطة وعلى وجوه
الناس . واحتمل جنود شارل في تجلد صامت بينما لقي ألفان منهم
حتفهم جوعا أو بردا . قال شاهد عيان « كنت ترى بعضهم بغير أيد ،
وبعضهم بغير أرجل ، وبعضهم بغير آذان أو أنوف ، وكثيرين يزحفون
في سيرهم على نحو ما تفعل ذوات الأربع (٣٠) » وأمرهم شارل
بالسير قدما ، أملا في أنهم لن يلبثوا أن يباغتوا جيش بطرس الرئيسي
في مكان ما ويظفر بروسيا كلها في نصر ساحق واحد . وكان أينما
التقى بالعدو ، في هولوفكزين ، وسركوفا ، وأوبرسيا ، ينتصر بفضل
التفوق في القيادة والشجاعة ، على قوات كثيرا ما بلغت عشرة أضعاف

قواته . ولكن حين انتهى ذلك الشتاء ، كان جيشه قد تقلص من ٤٤٠٠٠ الى ٢٤٠٠٠ مقاتل .

وفى ١١ مايو وصل الى بلطاوه الواقعة على فرع من فروع الدنيبر على خمسة وثمانين ميلا جنوب غربى خركوف . هنالك لمح شارل أخيرا جيش بطرس ، وكانت عدته ثمانين ألف مقاتل . وبينما كان فى احدى جولاته الاستطلاعية أصابته رصاصة فى قدمه . فلم يعبأ بالجرح . وانتزع الرصاصة فى هدوء بسكينه ، ولكنه حين عاد الى معسكره أغمى عليه ، فلما عجز عن قيادة جيشه بشخصه ، وكل بها الجنرال كارل رينسكيول ، وأمره بأن يهاجم العدو فى الغد (٢٦ يونيو) . وفى بداية المعركة اكتسح السويديون كل شيء أمامهم ، وهم الذين لم يخسروا قط معركة تحت امرة شارل . ورغبة فى استئناف جنوده أمر شارل أن يحمل الى ساحة القتال على محفة ، ولكن نيران العدو حطمتها من تحته . وركب بطرس الى المقدمة رغم أنه مازال رسميا مجرد ملازم فى الجيش ، مستنهضا همم جنده ، ولكن رصاصة مرقت خلال قبعته ، وثانية صدها صليب ذهبى على صدره . وأسعفته الآن سنواته التى أعد فيها المدفعية ودربها ، فكانت مدافعه تطلق خمس مرات مقابل مرة يطلقها السويديون . فلما نصبت ذخيرة السويديين فتكت المدفعية الروسية بالمشاة السويديين على بكرة أبيهم ، واستسلم الفرسان السويديون حين رأوا الموقف ميئوسا منه . أما شارل فقد امتطى جوادا وفر مع مازيبا وألف مقاتل عبر الدنيبر الى أرض تركية . وفقد السويديون أربعة آلاف رجل بين قتيل وجريح ، والروس ٤٣٥٤ ولكنهم أسروا ١٨٦٧٠ فيهم قائدان وضباط كثيرون . وعامل بطرس الضباط معاملة كريمة ، ولكنه استخدم الأسرى فى التحصينات والأشغال العامة . وأشاد ليبتنر بانسانيته واستنتج من ضخامة الكتائب الروسية أن الله يقف فى صف الروس (٣١) . ووافق بطرس ، وكتب يقول : « الآن بعون الله أرسيت أساسات بطرسبرج وأمنتها الى الأبد (٣٢) » .

وكان للمعركة نتائج بعيدة المدى لا حصر لها . فقد فر لركزنسكى الى الألتزاس ، واعتلى أوغسطس الثانى عرش بولنده من جديد . واستولت روسيا على امارات البلطيق وكل أوكرانيا . وعادت الدنمرك

الى الحلف ضد السويد ، وغزت سكاني ، ولكنها ردت على أعقابها .
واستولى فردريك وليم ملك بروسيا على ستتين وهولشتين وجزء من
بومرانيا . وارتفع شأن روسيا وازدادت عزة وكبرياء . وعرض لويس
الرابع عشر التحالف مع بطرس ، فرفضه هذا ، ولكنه رضي أن يستقبل
مبعوثا للويس .

أما شارل فانه لم يعترف بأنه هزم هزيمة ساحقة . وأغدق الأتراك
الشاكرون صنيع أى انسان يثير القلاقل لروسيا على لاجئهم الملكى كل
أسباب التكريم ، باستثناء الامتيازات الملكية . ففى بندر (وهى اليوم
تيغينا) القريبة من الدنيستر ، احتفظ ببلاطه ، وتلقى من السلطان
أحمد الثالث المئونة له ولألف وثمانمئة سويدي بقوا فى خدمته . وحالما
التأم جرح قدمه استأنف التمرينات العسكرية ودرّب جيشه الصغير .
وشاع عنه أنه اعتنق الاسلام لزهده فى الخمر واختلافه الى الصلاة العامة
بانظام . ولم يدخر وسيلة ليقنع السلطان أو الصدر الأعظم بشن
الحرب على روسيا ، وبهذا الأمل رفض أن تعيده الى السويد سفن
فرنسية وضعت تحت تصرفه . وبذلت محاولة لتسميمه ، ولكنها كشفت
فى أوانها . وطالب بطرس بأن يسلم اليه مازيبا باعتباره مواطنا
روسيا خائنا ، ولكن شارل أبى أن يسمح بهذا ، وقطع مازيبا العقدة
بأن مات (١٧١٠) .

ان كل انتصار يولد أعداء جددا أو يلهب الأعداء القدامى . وقد
استطاع شارل أن يقنع السلطان بأن قوة روسيا المتزايدة ، التى
لا يكبحها الآن كابح فى الشمال ، ستتحدى هيمنة الترك على البحر
الاسود والبوسفور ان عاجلا أو آجلا . فأعلن السلطان الحرب على
روسيا ، وجرد عليها ٢٠٠ر٠٠٠ مقاتل بقيادة الصدر الأعظم . وأخذ
بطرس على غرة ، فلم يستطع أن يحشد أكثر من ٣٨ر٠٠٠ مقاتل فى
الجنوب ليصد هذا السيل الجارف . وخذله حلفاؤه البلغار والصرب .
فلما التقى الجيشان على نهر بروت (وهو اليوم حد رومانيا الشرقى)
اضطر بطرس لمنازلة الترك ، لأن الاقليم المحيط به كان قد دمر . ولم
يكن لديه غير مئونة يومين . وتوقع الهزيمة والموت ، فأرسل تعليماته
الى موسكو لانتخاب قيصر جديد اذا تحققت مخاوفه ، ثم اعتكف فى
خيمته ومنع أى انسان من الدخول عليه . ولكن زوجته الثانية كاترين

اتفقت مع قواده على أن الاستسلام خير من الانتحار الجماعى .
وواجهت غضب بطرس اذ حملت اليه خطابا طلبت اليه التوقيع عليه ،
يطلب فيه الى الصدر الأعظم شروط الصلح . ووقع بطرس يائسا .
وجمعت كاترين كل مجوهراتها ، واقتضت مالا من الضباط ، وبعثت
بطرس شافيروف نائب المستشار ، مسلحا بـ ٢٣٠.٠٠٠ روبل ،
ليفاوض الوزير فى شروط الصلح . وأخذ الوزير الروبيلات
والمجوهرات ، وسمح لبطرس بأن يسحب جيشه وعتاده دون عائق ،
شريطة أن يسلم آزوف ، ويجرد القلاع والسفن الروسية هناك من سلاحها
ويسمح لشارل بالعودة الى السويد فى أمان ، وألا يتدخل بعدها فى
شئون بولنده . ولم يتردد بطرس فى بذل هذه الوعود (أول أغسطس
١٧١١) وانصرف بجنوده . وأقبل شارل مستعدا لخوض المعركة ،
ولكنه استشاط غضبا حين وجد الصلح أمامه . فحمل السلطان على
طرد الوزير المسالم وواصل جهوده لاستئناف الحرب ، ولكن شافيروف،
الذى حمل معه ٨٤٩٠٠ دوكاتية ، أقنع الوزير الجديد بتثبيت
معاهدة بروت .

وأعيت السلطان هذه العقد ، فطلب الى شارل أن يرحل عن
تركيا ، ولكنه أبى . فأرسل السلطان قوة تركية عدتها اثنا عشر ألف
رجل لاجلائه ، واستطاع شارل بأربعين رجلا أن يصمد لهم ثمانى
ساعات ، قتل خلالها عشرة أتراك بشخصه ، وأخيرا قهره اثنا عشر
أنكشاريا (أول فبراير ١٧١٣) . فنقل الى ديموتيكيا قرب أدرنه ،
ولكن سمح له بأن يمكث فيها عشرين شهرا بينما كان وزير جديد يفكر
فى مقاتلة روسيا . فلما تضاعل هذا الأمل وافق شارل على العودة
للسويد . فزود بالحرس العسكريين والهاديا والأموال . وغادر ديموتيكيا
(٢٠ سبتمبر ١٧١٤) ، وأخترق الأفلاق وترانسلفانيا والنمسا ، وفى
منتصف ليلة ١١ نوفمبر وصل الى بومرانيا وثغرها وحصنها
سترالسوند ، على ساحل البلطيق جنوب السويد مباشرة . وكانت هى
وفيسمار الى الغرب آخر القلاع السويدية على أرض القارة .

وكان اصرار شارل قبيل ذلك على حكم السويد من تركيا ،
ورفضه بذل أى تنازلات لبطرس ، قد جرا الخراب على الامبراطورية

(السويدية . ففي أول أغسطس ١٧١٤ كان جورج ناخب هانوفر قد أصبح جورج الأول ملك إنجلترا . فلما عقد العزم على استخدام قوته الجديدة في ضم بريمين وفيردين الى هانوفر ، جمع بين بريطانيا وبين الدنمرك وبروسيا في حلف جديد ضد السويد ، وعزز الأسطول الانجليزي الأسطول الدنمركي في المضائق . ووجد شارل نفسه حبيسا في سترالسوند ، في حرب مع انجلترا ، وهانوفر ، والدنمرك ، وسكسونيا ، وبروسيا ، وروسيا . وظل يقاوم الحصار هناك اثني عشر شهرا بستة وثلاثين ألف مقاتل ، يقود حاميته المرة بعد المرة في هجمات بطولية عقيمة . فلما حطمت مدافع المحاصرين المدينة وأسوارها ، ولم يكن مفر من التسليم ، قفز شارل في سفينة صغيرة ، وأبحر بها وسط نيران العدو ، وبلغ كارلسكرونا على ساحل السويد (١٢ ديسمبر ١٧١٥) .

وانتظرت استوكهولم وصول بطلبها اليائس ، ولكنه أبى أن يعود اليها الا قائد ظافرا . فأمر بتجنيد قوات جديدة حتى من الغلمان الذين لا تتجاوز أعمارهم الخامسة عشرة ، وصادر جميع السلع الجديدة ليبنى بها أسطولا جديدا ، وفرض الضرائب على كل شيء تقريبا يستعمله شعبه حتى شعورهم المستعارة . فأذعنوا صامتين ، ظنا منهم بأنه ربما قد جن ، ولكنه مع ذلك عظيم . وجاهد البارون جيورج فون جورتز ، كبير وزرائه الآن ، ليحطم الحلف . ولاحظ أن جورج الأول مختلف مع بطرس على تقسيم الأسلاب ، فحاول أن يعقد صلحا بين السويد وروسيا ، ويعين ثورة أسرة ستيوارت في انجلترا ، ولكن خططه باءت بالفشل . وما وافى خريف ١٧١٧ حتى كان شارل قد حشد جيشا من عشرين ألف مقاتل . في تلك السنة ، ثم في ١٧١٨ ، غزا النرويج ، أملا في أن يكسب أرضا تعوضه ما فقد على أرض القارة . وفي ديسمبر حاصر قلعة فريدريكستين . وفي اليوم الثاني عشر رفع رأسه لحظة فوق متراس الخندق الأمامي واذا رصاصة نرويجية تصيبه في صدغه الأيمن فتريده قتيلا لفوره . وكان يومها في السادسة والثلاثين .

لقد مات كما عاش ، مشدوها ببسالته . كان قائدا مغوارا ، كسب انتصارات لا تصدق في ظروف معاكسة جدا ولكنه عشق الحرب عشق

المخمور بها ، ولم يشبع من الانتصارات ، وفى سبيل البحث عن انتصارات جديدة راح يدبر الحملات الى حد أشرف على الجنون . وقد أفسدت الكبرياء كرمه وسماحته ، كان يعطى كثيرا ، ويطلب أكثر ، ولقد عاق السلام غير مرة برفضه تنازلات ربما أنقذت امبراطوريته وماء وجهه . ولكن التاريخ يغتفر له أخطائه ، لأنه لم يكن البادئ بـ « الحرب الشمالية العظمى » ، هذه الحرب التى أبى أن يختمها الا بالانتصار .

أما الحكومة السويدية ، التى ندر أن جنحت الى التطرف ، فقد سارعت بمفاوضات الصلح . وبمقتضى معاهدتى استوكهولم (٢٠ نوفمبر ١٧١٩ و ١ فبراير ١٧٢٠) نزلت عن بريمين وفيردين لهانوفر ، وعن ستيتين لبروسيا ، ورفضت أول الأمر مطالب بطرس بجميع الأراضي السويدية فى البلطيق الشرقى ، فغزت الجيوش الروسية ثلاث مرات هذه الدولة التى استنزفت الحروب دماءها ، وخربت أراضيها الساحلية ومدنها . وأخيرا ، وبمقتضى معاهدة نيستاد (٣٠ أغسطس ١٧٢١) حصلت روسيا على ليفونيا ، واستونيا ، واينجريا ، وجزء من فنلنده . وهكذا ترك الصراع على البلطيق روسيا ظافرة ، وجعل منها « دولة عظمى » .

أما القيصر المكود ، المكتهل ، الظافر رغم ذلك ، والذى وصل الى بطرسبرج ومعه نبا السلام ، وهتاف السلام ، السلام « مير ! مير ! » فقد حياه شعبه أبا لوطنه ، وامبراطورا لأقاليم روسيا كلها ، ولقبه ببطرس الأكبر .